شعر مَجْلِس شُعراء جَبَل الفَتح في كتـاب (المَـن بالِإمَامَة عَلـى المُسْتَضْعَفِينَ بَأَن جَعَلَهُم الله أَئِمَةً وَجَعَلَهُم الوَارِثِينَ) لإبن أَبي صاحب الصلاة: (دراسة موضوعية)

م.م. فواز أحمد محمد*

تاريخ التقديم: 2009/1/14 تاريخ القبول: 2009/4/22

توطئـــة

لم يكن إعادة فتح جبل طارق سنة (555هـ) إنهاءً للصراعات العربية فحسب ولكنه كان حداً لأَطماع الإفرنج [1] وكان الفضل يعود للخليفة عبد المؤمن بن علي (ت 558هـ)[2] في الحفاظ على هذا الجزء المهم من الدولة الأندلسية الموحدية وحمايتها من الزحف الإفرنجي بعد أن أصبح الأندلسيون يعانون من شدة وطأة العدو عليهم شيئا كثيرا، فقد سقطت مدنهم مثل سرقسطة (456هـ)، وطليطلة (478هـ)، وبلنسية (488هـ) في أيام ملوك الطوائف وأيام حكم المرابطين، وإذا قدر للمدينة الأخيرة أن تعاد إلى حظيرة الإسلام بعد ثماني سنوات من سقوطها فان الأخريين قد ذهبتا إلى الأبد[3] ولم يستطع الأندلسيون والمرابطون أن يعيداهما ويستردهما مما جعل النكبة تؤثر ف ي نفوس الشعراء وتتخذ أبعاداً جديدة في شعرهم حيث أن الشعراء كانوا يرون أن لاسبيل إلى إنقاذ الأندلس إلا بالقضاء على الإفرنج وقد أدرك الخليفة – عبد المؤمن – حقا بأن الجزيرة بحاجة إلى فتح جديد فعليه أن يعد العدة للجهاد الأكبر ليعيد به إلى الإسلام صفحته الجديدة [4]

---

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(1) ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان: 373.

(2) ينظر: أزهار الرياض في أخبارعياض، ج1، المقري التلمساني: 525 ومابعدها.

(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، م1، ق3: 101.

(4) ينظر عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: 377.

ولسنا بهذه الإلمامة السريعة نروم أن يكون البحث قائما على دراسة تاريخية لتلك الحقبة من عمر الدولة الأندلسية، وان كان الأدب والتاريخ متلازمين، والذي يهمنا من هذا الأمر كل هـ الشعر الذ ي واكب تلك الأنظمة السياسية التي حكمت شبه الجزيرة الأندلسية لأن الشعر فـ ي مجمله جارى تلك الأحداث السياسية وتفاعل معها[1] وجاء اقتصاري على كتاب تأريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة لسببين رئيسين:

أولهما: أن القرن الخامس للهجرة كان وما يزا ل يستأثر بإعجاب الدارسين واهتمامهم كون هذه المدة من أخصب العصور التي عاشتها الأندلس وشهدت فيها عصرها الذهبي من الازدهار الحضاري والأدبي، لذا آثرت أن يكون موضوع بحثي موجزا قدر الإمكان؛ وما يعنينا من كتاب تأريخ المن بالإمامة المواضع الخاصة بأربعة من الشعراء الأندلسيي ن ممن أنشدوا شعرهم في حضرة الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي وهم: أبو بكر بن المنخل الشلبي(ت560هـ)[2] وابن السيد الأشبيلي المعروف باللص(577–578هـ)[3] والقرشي الأمي القرطبي

(1) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (92–897هـ)، منجد مصطفى بهجت: 18.

(2) هو محمد بن إبراهيم بن المنخل الفهري يكنى أبا بكر وكان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجيدين وكان حسن الخط جيد الضبط يشارك في علم الكلام مع صلاح وخير وشعره مدون، وشلب التي ينسب لها الشاعر من غرب الأندلس وقد توفي في حدود الستين وخمسمائة. ينظر: تأريخ المن بالإمامة: 143 وينظر أيضا: زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أبو صفوان التجيبي المرسي: 129.

(3) هو أبو العباس احمد بن علي بن محمد وقيل احمد بن محمد بن علي بن عبد الملك بن سيد الكناني الاشبيلي ولقب باللص لإغارته على أشعار غيره كانت وفاته سنة 587هـ وقيل 588هـ كما كان مولده سنة 502هـ أو 503هـ. الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة، ابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار المعارف، مصر، ط2، د.ت: 16 وينظر، النقد الأدبي في كتاب نفح الطيب للمقري، هدى شوكة بهنام، دار الرائد العربي، بيروت–لبنان، ط2، 1984: 346.

المعروف بالطليق ويسميه المقري [1] بالأصم المرواني (مجهول الوفاة) وابن صاحب الصلاة الباجي (ت 578هـ) ويخلو كتاب المن بالإمامة من الحديث عن حياة هؤلاء الشعراء وإنما اكتفى بالإشارة إليهم كما انه اقتصر عل ى سرد شعر الشعراء إذ غلب عليه الطابع الإحصائي، لذا فان محاولتي ستقوم على دراسة أهم المواضيع التي تطرق إليها هؤلاء الشعراء والتي تكاد تكون قسيما مشتركا بين الشعراء المداحين، أبين من خلالها ابرز السمات الموضوعية التي تنطوي عليها.

1. موضوعاته:

لم تختلف موضوعات الشعر في عهد الموحدين عن العهود السابقة، بل دارت في أكثر موضوعاته ولكن السمة العامة التي اتسم بها هي أنه تأثر بالمنهج العام الذي انتهجته الدولة [2] فكانت موضوعاته جادة في مجملها وغلبت عليه السمة المتأثرة بالتعاليم الإسلامية [3] وكان المديح يختلط بمعان دينية تخلق نوعا من الشعر المتصل بالعقيدة والتصوف، والى جانب ذلك كان لهم شعر المديح أجادوا فيه لتأييد هيبة الخلافة الموحدية التي لم تأل الجهد في إسباغ الرعاية وتخصيص الجوائز السنية والهبات الجزلة التي تذكي حماستهم وتقوي نشاطهم ولاسيما أن عبد المؤمن "كان مؤثرا لأهل العلم، محسنا إليهم، يستدعيهم في البلاد ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وكان يعقد ندوات علمية في قصره"[4].

ويسترعي انتباهنا جانبان أساسيان في مدائح الشعراء في جبل الفتح:

- جانب معنوي يرتبط بمفهوم البطولة والجهاد.
- جانب مادي يرتبط بالعلاقة المادية بين الشاعر والبطل.

---

(1) نفح الطيب، م4: 358.

(2) ينظر: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط3، د. ت: 69.

(3) ينظر: في الأدب الأندلسي، جودت الركابي، دار المعارف، مصر، ط2، 1966: 29.

(4) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963هـ: 296.

أما ما يخص الجانب المعنوي، نجد أن مفهوم البطولة يبقى مفهوما قائما على تخيل الشعراء الذين لم يعيشوا أجواء المعارك ومسمياتها فتقترن في ذهنه تاريخيا أمجاد السابقين.

أما مايخص الجانب المادي، فيتمثل في علاقة الشاعر بالممدوح، فيتمثل لنا بتلك المادة التي لاتكاد تخلو منها مدحة لذا فان التكسب يبدو واضحا في قصائدهم. وقد دارت قصائد الشعراء في أربعة محاور رئيسة:

أ. القائد المسلم:

كان موقف الشعراء من القائد المسلم قد تجلى بصورة واضحة من خلال قصائد المديح التي نظمها الشعراء في مجلس جبل الفتح، وقد كانت القصائد في تمجيد القيادة الإسلامية التي تزعمت حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزاة الإفرنج، وكانت شخصية القائد عبد المؤمن بن علي محورا رئيسيا دارت حوله القصائد، وكان موضع إعجاب وتقدير إذ تمثلت فيه الصورة المثلى للحاكم بكل مايتحلى به من صفات وفضائل ولاسيما الدور الذي قام به لم يقتصر في الإعداد للمعركة والتخطيط لها من بعيد فحسب وإنما تجاوز ذلك إلى المشاركة الفعلية فيها فجمع بذلك القيادتين السياسية والعسكرية معا.

فيشير الشاعر الأصم المرواني إلى قدرة بطله على إدارة المعارك والقتال فقد كانت للخليفة دراية عظيمة في إدارة الحروب والتنظيم والدعاية [1]، فقائده محارب ومتمرس على القتال، إذ يقول[2]:

تَدبير منْ قَارَعَ الأيامَ واخْتَلَطَتْ آراؤه في الوغى بالسُّمْر والقُضُبِ

إن آب من غزوةٍ أفْنَتْ أعَاديه كانَ الإيابُ لأُخرى أعْظَمَ النَسَبِ

(1) ينظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، محمد العروسي المطوي، دار المغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1982م: 226.

(2) تأريخ المن بالإمامة: 155.

ويتحدث ابن صاحب الصلاة الباجي عن المشاركة الحربية التي قام بها القائد عبد المؤمن بن علي عند جوازه إلى جبل الفتح، ويبرز التعبير الشعري محركا زناد البطولة في عهد الموحدين وهو الخطر الإفرنجي الذي كان يهدد المسلمين، وتتجلى في الأَبيات الفروسية في أَسمى صورها فقد صور الشاعر القائد عبد المؤمن فارساً يعزّ عليه أَن يسمع صريخ المسلمين دون أن يستجيب لهم ويدفع الظلم والعدوان عنهم، إذ يقول[1]:

فَطَافَ بأَرْضِ الكُفْرِ حتى أَعَادَهَا إلى الحقِّ وإنقاد الأَبي المشاقـق
وَكَرَّ إلى نَصْرِ الجَزيرَةِ بعد ما أَتَاهُ مع الرُكْبَانِ نَاعٍ[2] وَنَاعِق

والأصم المرواني يثني على شجاعة وحماسة عبد المؤمن للقتال وإقدامه عليها فهو إذا ما دعته الحرب لبى نداءها وطار إليها متقدما الجيوش الضخمة، إذ يقول[3]:

مَلِكٌ إذا مَادَعَتْهُ الحَرْبَ مِنْ بُعُد طَارَ السَّفين أَمَامَ الجَحْفَلِ اللُّجَـبِ

والثقة بالنفس مظهر من مظاهر الشجاعة فالقائد عبد المؤمن إذ يقتحم الخطوب بقلب ثبت، وشجاعة فائقة كان واثقا من شجاعته وبأسه ومهارته في القتال فممدوحه لو شاء لخاض المعركة راجلا، يقول ابن صاحب الصلاة[4]:

فَلَو شَاءَ لم يَرْكَبْ جَواداً بِجَحْفَلٍ وَلاحَمَلَتْهُ في السُفَارِ الأيانـق[5]

وهذه الحماسة انعكست على قطعات جيشه أيضا، يقول ابن المنخل الشلبي[6]:

فَلَو لَمْ تُجِزْهَا السُفْنُ نحو عدوها لَجَازَتْ إليهِ البَحْرَ تقْطَعْهُ وَثْبَا!

وَيَتَغَنَّى ابن المنخل بهذه الشجاعة والبطولة الحربية للخليفة عبد المؤمن مركزاً على إبراز التفاعل بين القائد وجنده في القتال فقد صوَّر الشاعر الخليفة فارساً يتقدم

---

(1) المصدر نفسه: 162.
(2) ناع: بعد، مادة نيأ، لسان العرب، ج1: 178.
(3) تأريخ المن بالإمامة: 155.
(4) المصدر نفسه: 160.
(5) الايانق: الانوق، طائر العقاب، القاموس المحيط، فصل الهمزة، ج1: 1117.
(6) تأريخ المن بالإمامة بالإمامة: 147.

الفرسان في العراك والنزال ويتحمل العِبْء الأَكْبَر في القتال ويبعث الحمية في نفوس جنوده الذين يلتفون حوله لآئذين به، إذ يقول[1]:

يَلوذُونَ في الهَيْجَا بِأَرْوَعِ مَاجِدٍ إِذَا دَارَتِ الهيْجَاءُ كَانَ لها قُطْبَا

وَإِنْ عَصَفَتْ ريحُ الوَغَى أَحْدَقُوا بـه فَكَانوا لَهُ جِسْماً وَكَانَ لَهُمْ قَلْبَا

والشعراء كانوا يحرصون على إضفاء هذه الصفة على شخصية القائد عبد المؤم ن لما لها من أهمية في ميادين القتال حتى غدا رعبه والتخوف من لقائه من المظاهر الدالة على شجاعته وإقْدَامِهِ، يقول ابن السيد الأشبيلي[2]:

أضحى بُكْرَتُهُ الإسلام في جذَلٍ[3] والمُشْرِكوُنَ وأَهْلُ الكُفْرِ في جَدَل[4]

والتعبير الشعري يرسم صورة معبّرة للحالة النفسية التي نجمت عن وجود القائد عبد المؤمن في الأمة فقد آمن المسلمون به، أما المشركون فقد شاع الرعب والفزع في قلوبهم والاضطراب في صفوفهم، بل إن التعبير الشعري قَدَّم الإسلام في صورة حية سعدت بهذا القائد؛وقد كان الصراع بين الموحدين والإفرن ج بالغ العنف لذلك كان يثني ابن صاحب الصلاة لقوة قائده وفتكه بالأعداء وارهابهم، وقدرته عليهم سمة من سمات القائد الشجاع فسيوف الخليفة عبد المؤمن قَطَّعَت أَجسام العداة وفتكت بها[5]:

لَهُ شيمَةٌ تَرْتَاح للبَذْل والنَدَى وكَفٌ لِتَفليقِ الجَمَاجِمِ وَامِقُ[6]

تُقَسَّم أَجْسَامُ العُدَاةِ سيوفُـهُ وَلُدْنٌ بأيدي الطاعنِينَ بَواسِقُ

ويتحدث الشعراء عن المغزى الذي يقاتل من أجله القائد المسلم، فيؤكدون أنه لايسعى إلى المكاسب الدنيوية، وإنما يقاتل في سبيل الله ويسعى إلى نيل مرضاته،

---

(1) المصدر نفسه: 145.

(2) المصدر نفسه: 151.

(3) جذل: فرح، لسان العرب، مادة جذل، ج11: 106.

(4) جدل: الخصومة، لسان العرب، مادة خصم، ج12: 180.

(5) تأريخ المن بالإمامة: 161.

(6) وامق: ومق: أحب، لسان العرب، مادة ومق، ج10: 385.

فهو يقارع الإفرنج حتى يعمل على رفع راية الله وإعلاء كلمته في الأرض، فكان النصر ثمرة الاعتزاز بدين الله، يقول ابن المنخل[1]:

وَقَدْ كَانَ هَذَا الدينُ وَلَّى شَبَابَهُ فَلَمَّا تَوَلَّى الدِّين لم يعدْ إن شَبَّا
رَأوا بِكَ دينُ الله كَيْفَ إعْتِزَازَهُ وأنْتُم لَهُ حَرْبٌ فَكَانوا لَهُ حَرْبَا

لذا فإنّه لاغرابة أن نجد هذا القائد تقياً ورعاً، فهذا ابن صاحب الصلاة أَشاد بتقوى عبد المؤمن وهذه التقوى هي التي أَضَاءَت قلبه وأَنَارَت سريرته فكشفت له الحقائق، إذ يقول[2]:

إذا هَمَّ أمْراً لَمْ يلُح بِحَقيقَةٍ وَغَابَ دليلٌ للتَفَهُّمِ صَادِقُ
بَدَا مِنْ ضِيَاءِ العَقْلِ هدي يَدُلُّهُ عَلَيْه وَمِنْ نورِالبصيرةِ سابِقُ
وَمَنْ جَعَلَ التَقْوَى سِرَاجَاً لِقَلْبِهِ أَضَاءَ ولَمْ تُحْجَبْ لَدَيهِ الحَقَائِقُ

ومن الجدير بالذكر، إن فكرة ربط التقوى بالقائد المسلم هي فكرة قديمة في شعرنا العربي الذي صور البطولة الإسلامية في عصورها المختلفة فـ"..... المتتبع للتاريخ الإسلامي منذ نشأة الإسلام والى عهد غير بعيد لابد أن يلحظ أن شخصية القائد الصالح في المجتمع الإسلامي لم تنسلخ يوماً عن شخصية الإنسان التقي."[3] ومادام القائد على هذه الحال من التقوى والعزم على مواصلة الحروب مع الإفرنج والتصدي لهم من أجل حماية الدين ونصرته فإنَّ الله يمنحه القدرة على ذلك ويتولاه بعنايته، وهذا واضح في قول ابن السيد الأشبيلي[4]:

تُزْهَى بِمُلْكٍ قَديرٍ كُلَّ مَمْلَكَةٍ وَيَزْدَهِي رَبُّهَا إنْ عُدَّ مِنْ الخَوَل
أَبْلِغْ ذَوِي الشِرْكِ والإلحَادِ قَاطِبَةً أَنَّ مَالَهُم مِنْ جُنودِ الله مِنْ قِبَل!
وَاللهُ يُخَلِّدُ مَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا حَتَّى يبلّغ فِيْكُمْ غَايَةَ الأمَلِ!

(1) تأريخ المن بالإمامة بالإمامة: 145–148.
(2) تأريخ المن بالامامة: 162.
(3) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، محمود إبراهيم، دار البشير، عمان، 1988م: 156.
(4) تأريخ المن بالإمامة: 152، 151.

ويمضي ابن السيد الأشبيلي إلى ماهو أبعد من ذلك، حين يرى أن الله هو الذي إصطفاه من بين ملوك الأرض لنصرة دينه ومقَارَعةِ أَعدائه لأنَّه كان أَهْلاً لذل ك بما يتصف به، إذ يقول[1]:

خِلْفَةُ الله مَا جَاءَ الزَّمَان بـه إلاَّ لِيَرْفُوَّ مَا فِيهِ مِنْ الخَلَل

تَغنى بِعَزْمَتِهِ الأَقْدَار مُجْلِيَةً عَنْ حَادِثِ جَلَلٍ في الحَادِث الجَلَل [2]

دُوْنَ الخِلافَةُ في أَجْفَانِه زَمَعٌ مَذْهَبُ سَيْفِه لَمْ يَهْد في الخَلَل

إذن فهو القائد الذي بإرادته تتحرك الجيوش وتفتح الفتوح وتتحقق الانتصارات، انطلقاً من كون الخليفة هو المرجع الأَعلى والرمز الديني الذي تُؤَوْلُ إليه أمور الأمة على امتداد أصقاع الدولة الأندلسية، لذا فأياً كان الفاتح للأَندلس ففضل إنقاذها أولا وقبل كل شيء يعود لله ثم للخليفة. وفي صورة أخرى يرى الأَصَم المرواني أن قائده خليفة الله ويتصف بكونه واسع العلم غزير المعرفة معتنياً بالفكر قائماً عليه، ولاغرابة في ذلك فالعلم سلاح ماض في المعركة، وقد أشار أبو جعفر بن سعيد بعناية عبد المؤمن بالآداب وقيامه بأمرها [3] فالخليفة علمه باد للناس جميعا، يقول الشاعر[4]:

مَا بَيْنَ رَاحَتِهِ الطُولَى وَخَاطِرِهِ يَفِيضُ بَحْرُالنَدَى بالعِلْمِ وَالأَدَب

خَلِيفَةُ الله بَادِي العِلْم مُبْتَسِمٌ عَنْ جَوْهَرِ مِنْ بَدِيعِ النَظْمِ مُنْتَخَب

وهذا ماجعل أثر علم هذا القائد يبدو واضحاً في أفراد رعيته، يقول أبن المنخل الشلبي[5]:

وَلَو عَلِمَ النَّاسُ الخفياتِ أَمْرَهُ لَمَا دَرَسُوا صُحْفَاً وَلاصَنَّفُوا كُتُبَا

---

(1) المصدر نفسه: 149.

(2) جلل للأمر العظيم والصغير، لسان العرب، مادة جلل، ج11: 116.

(3) نفح الطيب، م5: 129.

(4) تأريخ المن بالإمامة: 158.

(5) تأريخ المن بالإمامة: 145.

والناظر في صورة القائد المسلم –عبد المؤمن –يلحظ أنها تنهمل من معين واحد، يقوم على رسم صورة مثلى للقيادة الإسلامية التي تجسد تطلعات الجماعة الإسلامية في الأندلس إلى القيادة الواعية التي انتظرتها بفارغ الصبر كي تعمل على توحيد صفوفها ضد أعدائها المتربصين بها؛وتستنقذ البلاد من أَيديهم وتخلصا مما تعاني منه، فالقائد عبد المؤمن هو القائد الذي تبنى عليه الآمال، يقول ابن السيد الاشبيلي[1]:

لِتَهُنْ أَنْدَلُسَاً أَنْ زَارَهَا مَلِكٌ أَحْيَى وأَنْشَرَ فِيهَا مَيّتَ الأَمَلِ
وَمَنْ تَكُنْ عَادَةُ الإِحْيَاءِ عَادَتُهُ هَانَتْ على رَاحَتَيْهِ جُمْلَةُ العِلَلِ

ويؤكدا الأصم المرواني الفكرة ذاتها، إذ يقول[2]:

إِنَّ الجَزِيرَةِ مِنْ طُولِ انتِظَارِكُم لَها بِكُلِّ طَرِيقٍ لَحْظُ مُرْتَقِب
ياوَافِداً عُلِقَت مِنْ يُمْنِ مَقْدِمِهِ أَيْدِي الأَمَانِي بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْقَضِب

ومهما يكن من أمرٍ فإن الصور التي يرسمها الشعراء للقائد المسلم عبد المؤمن ليست مقتصرة على إبراز الدور الذي إضطلع به في تجهيز الجيوش وقيادتها والاشتراك الفعلي في المعارك وإنما تعداها إلى إبراز أَبْعَادَها النفسية والفكرية التي تنجم عن وجوده في الأُمة، فقد رأى الشعراء أن القائد بما يتمتع به من مزايا وصفات قادر على تحفيز الأمة وبعث طاقاتها وتفريج أَزماتها النفسية وإشعارها بالثقة وبالتالي خلق حالة من الأَمن والإطمئنان بين صفوفها من خلال سهر القائد الدائم على مصالح المسلمين، يقول ابن السيد الأشبيلي[3]:

فَكَانَ كَالنَّومِ فِي أَجْفَانِ ذي سُهُدٍ أَو كَالأَمَانِ عَلَى أَحْشَاءِ ذِي وَجَل

(1) المصدر نفسه: 149.
(2) المصدر نفسه: 157–158.
(3) المصدر نفسه: 151.

ويبرز الأَصم المرواني دور القائد في تأْنيس الرعية وإخراجها من وحشتها وكشف شداتها وتفريج أَزماتها وما ينتج من ذلك من راحة نفسية وشعور بالأَمن والاستقرار، إذ يقول[1]:

جَلَّى إِيَابُكَ عَنَّا كُلَّ مظلَمَةٍ وَأَنِّس الدِّين من إيحاشِ مُغْتَرِب
صَافِحْ بِتِلْكَ اليَدِ البَيْضَاءِ قِبَتَّهَا فَإِنَّهَا أَصْبحَتْ مُسْوَدَّة الطُّنُبِ

وَيُعَبِّر ابن صاحب الصلاة في المعنى نفسه مصوراً الخليفة عبد المؤمن بجوده يبذل المال لمن يقصده ويقدم الحاجة لمن يلوذ به، فيقول[2]:

أَزَاحَ الرَّدَى عَن مَن يَلُوذُ بِظِلِّهِ وَبَثَّ النَدَى فَاسْتَرْزَقَتْهُ الخَلَائِق
فَفِي ظِلِّهِ أَمْنٌ مِنَ الخَوفِ مَانِع وَفِي كَفِّهِ بَحْرٌ مِنَ الجُودِ رَازِق

وهذه الرقة التي نجدها عند القائد عبد المؤمن ليست مقتصرة على رعيته فحسب، بل على أَعدائه كذلك، فعندما فتح المسلمون جبل طارق أعطى عبد المؤمن الآمان للإفرنج وأطلق سراحهم وقدم السفن لهم حتى يجلوا عن البلاد معبرا الشاعر الأصم المرواني عن فرح الإفرنجيين وقد منّ الخليفة عليهم بالعفو، الذي هو عفو مقتدر لاعفو ضعيف، إذ يقول[3]:

سَارَ العُلُوجُ وَفِي أَعْنَاقِهِم مِنَنٌ مِن عَفْوِ مُقْتَدِرٍ للغَزْوِ مُنْتَدِب
مَدُّوا الأَكُفَّ لِلَمْسِ النَّجْم مِنْ فَرَحٍ وَشَمَّروا لوُثوب البَحْر مِنْ طَرَب!

وهذا ما جعل الشاعر ابن سيد الاشبيلي يحذر من أَناة الخليفة وحلمه محذرا إياه من عاقبة ذلك الحلم الذي قد يبطر العاصين ويحملهم على الزلل، إذ يقول[4]:

مَازَالَ يُغْضِي فَيُعْطِي صَافِحَاً كَرِماً وَالصَفْحُ قَدْ يَحْمُلُ العَاصِي عَلَى الزَلَلِ

وهكذا نجد قصائد الشعراء قد نظمت لتختص بالخليفة عبد المؤمن النصيب الأوفر من المديح وكانت نماذجهم الشعرية تسعى إلى إبراز فضائل الشجاعة والنخوة

---

(4) المصدر نفسه: 157.
(1) المصدر نفسه: 160.
(2) تأريخ المن بالإمامة: 156.
(3) المصدر نفسه: 150.

والبطولة، ولم يخرج شعراء المديح في هذا المجلس عن الأَوصاف التي اقتبسوها من سابقيهم كالوصف بالشجاعة والنخوة والجود وبذل المال وما إلى ذلك.

ب. جيش المسلمين:

عبر شعراء جبل الفتح في شعرهم عن شدة إعجابهم بالجيش الإسلامي الذي خاض المعارك والحروب ضد الغزاة فأَسهم في صنع الانتصارات العظيمة التي توِّجت بفتح جبل طارق وذلك لأن جند الجيش الإسلامي الذي يصفهم الشعراء كانوا متمسكين بعقيدتهم مؤمنين بها مجاهدين في سبيل الله يسعون لنيل رضاه، وإعلاء كلمته في الأرض.

ومن الصور الأساسية التي نراها في إطار الصورة العامة للجيش الإسلامي كثرته العددية، فالشاعر ابن صاحب الصلاة الباجي يتحدث عن الجيوش الضخمة التي جهزها الخليفة عبد المؤمن وقادها إلى الأندلس تلبية لنداء أهلها فهو جيش ضخم العدد يرهب كل من يعاينه، إذ يقول[1]:

بِجَيْشٍ تَضِيقُ الأَرْضُ عَنْهُ بِطُولِهَا وَتَرْهَبُهُ لَوْ عَايَنَتْهُ العَمَالِق

وفي قصيدة أخرى لإبن السيد الأشبيلي وفيها يستعرض الجيوش الضخمة التي احتشدت في جبل طارق غداة عبور عبد المؤمن، نَسْتَشِفُّ من خلال الأَبيات ضخامة الجيوش وكثرة عددها فهناك الجموع البرية الكثيفة ترافقها قطعات بحرية تماثلها في الكثرة أما من الجو فهناك الطيور الجارحة التي تصاحب جيش المسلمين كي تأَخذ غنيمتها من جثث الأعداء والأبيات ترمز للنصر الدائم للمسلمين، اذيقول[2]:

تَعْدُو عَلَيهِ ذَكَاءٌ وَهْيَ قَدْ نَهَبَتْ فَتَسْتَجِدُّ أَنَاةً مِنْ سَنَى المُقَل

مُصَاحِباً مِثْلَهُ في اليَمِ مُتَّصِلاً مِنْهُ بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ غَيْرَ مُنْفَصِ ل

(1) المصدر نفسه: 162.

(2) تأريخ المن بالإمامة: 151.

مِنْ كُلِّ عَائِمَةٍ في شَكْلِ طَائِرَةٍ تَشَاكَلَ الأَمْرُ فِيهَا كُلَّ مُشْتَكَل

أما كتائب هذا الجيش فإنها غاية من التنظيم والدقة فهي كالأسطر المتراصفة في الكتب، يقول الأصم المرواني[1]:

كَتَائِبٌ صَفَّهَا وَالاَلُ أَرْدِيَـةٌ بِيضُ فَأَشْبَهَتِ الأَسْطَارِفِي الكُتُبِ

ويتحدث ابن صاحب الصلاة الباجي عن العناصر التي تكون منها جيش المسلمين الذي خاض المعارك والحروب مع الخليفة عبد المؤمن، فيشير إلى انه كان يتكون من خيرة شباب العرب كما أنه يضم عناصر إسلامية مختلفة كانت تجمعت في أماكن وجنسيات مختلفة تحت قيادة واحدة لمواجهة الإفرنج، وان هؤلاء مدربون على القتال مهرة فيه إذ كانوا يتصفون بسرعة الحركة والمناورة من ناحية، وبالقدرة على استخدام أدوات القتال وإصابة الهدف فهؤلاء الفرسان كالأسود على متون خيل تسابق البرق في سرعتها[2]:

وَخَيْلٌ تَسُوُقُ الأُسدَ فَوْقَ مُتُوْنِهَا وَتَسْبق لُمْحَ البَرْقِ والبَرْقُ خَافِق
تَخَيَّرها التَّوفِيقُ مَنْ كُلَّ ضَامِرٍ وَأَرْكَبَهَا الأَبْطَال سَعْدٌ مُطَابِق
قَدْ أُنْتُخِبُوا مِنْ نُخْبَةِ العُرْبِ كُلِّهَا شَبَابٌ وَخَلْقٌ كَامِلٌ وَ خَلائِق

أما الأصم المرواني فيشير إلى أبناء القبائل العربية الذين كانوا يشكلون فئة كبيرة من الحشود التي جازت مع الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس، وندرك من أبياته تطوع كثير من العرب الخُلَّص منهم للجهاد والإشادة بهم على هذا النحو وهي إشادة أَظْهَر فيها أن الحرب التي سيخوضها هؤلاء العرب ليست حرب أَوطان ولا حرب أَجناس وإنما هي حرب عقائدية بل هي حربٌ إسلاميةٌ، وكان الشاعر صريحاً في تحديد الهدف الذي جازوا من أَجله أَلآ وهو جها د " **عابد الأوثان والصلب** "، يقول الشاعر[3]:

حَدِّثْ عَنِ الرُومِ فِي أَقْطَارِ أَنْدَلُسٍ والبَحْر قَدْ مَلأَ العَبْرينِ بِالعَرَب

---

(3) المصدر نفسه: 155.

(1) المصدر نفسه: 161.

(2) المصدر نفسه: 157، 154.

مِنْ كُلِّ مَنْ يَتْرُكُ الهَيْجَاءَ في حَلَكٍ جَمْرٌإِذَا اخْضَرَّتِ الغَبْرَاء بالعُشُب
مُقَلَّبٌ بَيْنَ مُشْتَاةٍ وَهَاجِرَةٍ تَقَلُّبَ السَّيفِ بَيْنَ المَاءِ واللَّهَب
يَرْمِي بِهِم ظَهْرَطرفٍ بَطنَ سَابِحَةٍ فالبَر في شُغُلٍ والبَحْرُ في صَخَب
وَتعْبُرُالماء مِنْهُم نَارُ عَادِيـة يصْلَى بِهَا عَابِدُ الأَوْثَانِ وَالصُلُب
صَدَرَتْ بالعَرَب العَرْبَاءِ وانْقَلَبَت عَنِ الحُسَامِ رِياحٌ شَرَّ مُنْقَلَب

ومن الواضح هنا أَن الشعراء كانوا يتعمدون التأكيد على كثرة الجيش الإسلام ي كي يحدثوا إستثارات معينة في نفوس المسلمين ويرفعون معنوياتهم القتالية، لأَن الطرف الآخر المعادي كان قد إتخذ من كثرته العددية كذلك وسيلة لإحباط روح المسلمين القتالية ظناً منهم إن العدد هو أَساس النصر على المسلمين، ولكنه إلى جانب ذلك لايهملون الحديث عن شجاعة الجيش الإسلامي وجرأته القتالية المشفوعة بالعزيمة القوية على مواصلة الجهاد وتحرير البلاد إذ كان الجنود يقبلون على المعركة غير هيَّابين فلا ترهبهم المنية ولاتخيفهم قوة عدوهم مهما عظمت كالذي نجده عند ابن المنخل الشلبي الذي يشير إلى رجال الجيش فهم كالقداح في خفتهم ونشاطهم وسرعة حركتهم في إقبالهم للمعركة، إذ يقول[1]:

عَلَيْهَا رِجَالٌ كَالقِدَاحِ، وإِنَّمَا يَكُونُوْنَ فِي الهَيْجَاءِ هِنْدِيةً قُضْبَا

وهم كالأُسود عندما تلاقي فريستها، يقول ابن صاحب الصلاة الباجي[2]:

رِجَالٌ وَلكِن فِي الحُرُوبِ ضَرَاغِمٌ وَخَيْلٌ وَلكِن فِي السِّبَاقِ شَوَائِق

ويُجَسِّد ابن المنخل الشلبي مدى التلاحم بين القائد وجنده، وفيها يشيد بالبطولة الحربية للخليفة عبد المؤمن في المعارك وعلى إبراز التفاعل بين القائد وجنده في القتال فقد صَوَّر الخليفة عبد المؤمن فارساً يتقدم الفرسان في المعركة والنزال ويتحمل العِبْء الأكبر في القتال ويبعث الحمية في نفوس جنده الذين يلتفون حوله لآئذين به، إذ يقول[3]:

---

(1) تأريخ المن بالإمامة: 144.
(2) المصدر نفسه: 161.
(3) المصدر نفسه: 145.

يَلُوذُونَ في الهَيْجَا بِأَرْوَعَ مَاجِدٍ إِذَا دَارت الهَيْجَاءُ كَانَ لَهَا قُطْبَا

وإِنْ عَصَفَت ريحُ الوَغَى أَحْدَقُوُا بِهِ فَكَانُوا لَهُ جِسْماً وَكَانَ لَهُم قَلْبَا

والإقبال على المعركة ليس مقتصرا على رجال القطعات البرية فحسب بل كذلك رجال القطعات البحرية فهم يقبلون على المعركة بشوق ولهفة حتى لو لم يكن هناك سفن لقطع هؤلاء الرجال البحر وثباً حتى يتم لهم النصر، يقول ابن المنخل الشلبي[1]:

فَلَو لَمْ تُجِزْهَا السُّفْنُ نَحْوَعَدُوِّهَا لَجَازَت إِلَيْهِ البَحْرَ تَقْطَعُهُ وَثْبَا

وبالطبع فإنه لولا عزيمة هؤلاء المسلمون لما استطاعوا القضاء على الإفرنجيين فهم بحق أُسود البحر يقودون سفنهم التي تشابه الأساود في سرعتها بمهارة وجدارة وَيُصَرِّفونها حسب أَهوائهم وحسب مقتضيات المعركة القائمة، يقول ابن السيد الأشبيلي[2]:

هِيَ الأَسَاودُ إِلاَّ أَنَّهَا حُشِيَت أُسْدَاً فَطَالَتْ وَلَوْلَا الأُسْدُ لَمْ تَطُل

وبتلك العزيمة، استطاع الجيش الإسلامي إسقاط الحصن والمعقل الإفرنجي في جبل الفتح الذي تحصنوا به، وعلى الرغم من مناعة الحصن واستعصائه على الفاتحين، إلا أَنَّ هذه المناعة لم تقف حائلا دون القوى الإسلامية المجاهدة فسقطت تلك الحصون وتهاوت ودخلها المسلمون ظافرين [3] فالأَصم المرواني يصف المصير البائس الذي انتهى إليه الإفرنج بعد المعركة من موتٍ واسرٍ وتشريدٍ، بعد حصار أَرهق الأَعداء وأَرغمهم على الاستسلام، يقول الشاعر[4]:

حَسْنَاءُ يَفْتَرَ للخُطَّابِ مَبْسَمُهَا عَن جَوْهَرِ السَّيْفِ لاعَنْ مَبْسَمِ شنِب

مَنِيعَةٌ مِنْ ذُرَى سُورٍ تَكَنَّفَهَا وَزَاخِرِ مُرْبِدُ الأَمْوَاجِ مِنْ غَضَب

تَغَلْغَلَت فِي خِنَاقِ الجَوِّ صَاعِدَةً حَتَّى حَسَبْنَا مَدَارَ النَّجْمِ فِي صَبَب

---

(1) المصدر نفسه: 147.

(2) المصدر نفسه: 151.

(3) ينظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: 227.

(4) تأريخ المن بالإمامة: 156.

وَحِيْنَ غَادَرَهَا طُولَ الحِصَارِلَهَا كَأَنَّهَا مَرِكِبٌ أَشْفَى عَلَى العَطَب
أَلْقَتْ إِلَيْكَ بِأَيْدِي الذلِّ طَائِعَةً وَمَكَّنَتْكَ مِن المَسْلُوبِ وَالسَلَب

والوصف الذي يقدمه لنا الشاعر لمنعة مدينة المهدية – جبل الفتح – يتفق مع ماأورده المؤرخون فهي من معاقل المغرب المنيعة ذات الأَسوار العالية التي تحيط بها؛ فضلا عن البحر الذي يكتنفها من ثلاث جهات، فاكسبها حصانة طبيعية [1] وهذا ماجعل الشاعر يصفه ا بالعذراء الممتنعة، ونظراً لكمال الجيش الإسلامي عدداً وعدَّةً، فقد غدا رعبه والتَخَوّف من لقائه قوة منظورة في حروبه مع الإفرنج الذين يهبون مواجهته والدخول معه في معركة مباشرة، إذ كان الاحتراز والتحوط منه في صفاتهم واضحة، لذا فإن الشاعر ابن السيد الاشبيلي يحثهم على الاستسلام والدخول في الإسلام لأَنه لاقدرة لهم بهؤلاء الجند وبدولة الموحدين وإلا "**فاليخافوا فجأة الأجل**"[2]:

أَتَاكُم الجَيْشُ مَحْفُوفاً جَوَانِبُهُ بالمَشْرَفِيِّة والخطّيَة الذبلِ
رِيعُوا إِلى السِّلْمِ والإسلام وَيْحَكُم لاتَحْسَبُوا دَوْلَة التَّوْحِيد كَالدوَلِ
فَ ِإن أَتَيْتُم حَقَنْتُم مِنْ دِمَائِكُم وَإِن أَبَيْتُم فَخَافُوا فَجْأَةَ الأَجَلِ

مما تقدم، نلحظ أن الغالب المكوِّن للجيش الموحدي هم مجاميع إسلامية كَوَّنَت صورة الجيش الإسلامي الذي خاض المعارك والحروب بقيادة عبد المؤم ن بن علي، أما قائد الإفرنج وجنده فلا نراهم إلا وهم يفرون من ميادين القتال أو هم أشلاء مبعثرة على أَرض المعركة

ج. قائد العدو:

كانت نغمة السخرية والشماتة بالإفرنج تتعالى وتتزايد بصورة واضحة وهم يتحدثون عن ملوكهم العظام وقادتهم الشجعان، وقد إنفرد الشاعر ابن المنخل

(1) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، اعتنى بنشره وتصحيحه: ى. س. علوش، المطبعة الاقتصادية، رباط الفتح، 1936: 129–128.
(2) تأريخ المن بالإمامة: 152.

الشلبي بذكر قادة الإفرنج وأحدهم هو (**ابن الريق أو ابن الرنك**)[1] وقد كان هذا القائد من أكثر قادة الإفرنج وطأة على المسلمين في المدة التي عبر فيها الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس فقد قام بسلسلة من الاعتداءات على أراضي الأندلس استطاع فيها الاستيلاء غدراً على بعض المدن في الغرب، ويبدو أن ابن المنخل كان مدركا هذا الأمر لذلك فقد حثَّ الخليفة عبد المؤمن على التوجه لمحاربة هذا العدو، إذ يقول[2]:

أَقِيْمُوا إِلى إِبْن الرِّيقِ بَعْدَ صُدُوْرِهَا وَلَيْسَ عَلَيْكُم أَن تَرَى ضُمَّراً قُبّا

والقائد الإفرنجي الآخر هو **(ابن ريمند)**[3] وفيها يهدد ابن المنخل هذا القائد بغزوة من بطله عبد المؤمن واصفا ضخامة الجيش الإسلامي الذي سيزحف صوب هذا القائد ويسدُّ كلَّ ناحية عليه، إذ يقول[4]:

فَقُلْ لِإبنِ رَيْمُنْد تَأَهَّبْ لِغَزْوَةٍ يُسَدُّ عَلَيْكُمْ جَيْشُهَا الأَفتحُ السُهَّبَا

ويحلق الشاعر بخياله مختزلا الزمن ليصور أرض المعركة وقد سفكت سيوف المسلمين دماءهم وأضحت كجداول الحدائق في جريانها والرماح قد امتزجت بأحشائهم وعلت أجسادهم حتى أصبحت قضبا من شدة الطعنة، إذ يقول[5]:

إِذَا جِّردَت فِيهَا السُّيُوفُ حَسِبْتَهَا جَدَاوِلَ رَوْضٍ، والرِمَاح بِهَ قُضْبَا

مشبها هذا المشهد بصورة ساخرة ومزرية، فيقول[6]:

---

(3) ابن الريق هذا هو الفونسو هنركيزوقد تسميه المصادر كذلك ابن الرنك، أو صاحب قلمرية أي صاحب البرتغال، لان قلمرية آنئذ عاصمة البرتغال. المصدر السابق: 144.

(1) تأريخ المن بالإمامة: 144.

(2) ابن ريمند يعني ريمند برانكيز الرابع المتولي بعد وفاة أبيه ريمند الثالث سنة (525) هذا وليس ببعيد –كذلك –أن يكون القصد بابن ريمند أذفونش الصغير حفيد ريمند المعروف تحت أسم الفونسو الثامن، فضلاً عن إمكانية احتمال الابن الحقيقي لريموند وهو فرناندة البوج فهي اعتبارات ثلاثة. المصدر السابق: 146.

(3) المصدر نفسه: 146.

(4) المصدر نفسه: 146.

(5) المصدر نفسه: 146.

كَأَنَّ نَعَامَ الدَوِّ بَاضَتْ بأُفُقِهِ وَقَدْ لُقِحَتْ هَوْجَ الرياحِ بهِ سُحْبَا

أما قائدهم (ابن ريمند) فانه سيتعثر أثناء فراره من المعركة براية أحد محاربيه المقتولين، فيقتل ويسفك دمه، إذ يقول[1]:

وإِنْ عَثُرَت أَعلَامُهُ لِمُحَارِبٍ جَرَى دَمُهُ مِنْ تَحْتِهَا وابِلاً سَكْبَا

والشاعر ابن المنخل يجيد فن اصطناع المشاهد، فيصور في مخيلته عدة نهايات لهذا القائد، فان لم يقتل فانه سيفر من أرض المعركة خائفاً وقد تملكه الحيرة والارتباك والهلع، إذ يقول[2]:

وَإِنْ لقِيَت هَضْباً حوَافِرَ خَيْلِهِ أَصَارَتْهُ سَهْلاً لاتَرَى فَوْقَهُ هَضْبَا

وحتى إذا فر من القتل فان نكبته وخسارته في المعركة كفيلة بموته تحسرا وندما، إذ يقول[3]:

إِذ جَاوَزَتْ دَرْبَاً إِلَيْكُمْ فإِنَّمَا يَجُوزُ وَشِيكَ المَوتِ نَحْوَكُمْ دَرْبَا

أما جيش الإفرنج فباسل وشجاع من نجا بنفسه من ارض المعركة، وان الله عز وجل هو الكفيل بالقضاء عليهم، إذ يقول[4]:

وإِنْ يَقض نحْبَا مِنْهُمُ ذُو بَسَالَةٍ فَمِنْ نَفْس جَبَّارٍ لَكُم يَقْتَضِي النَّحْبَا

نلحظ – مما تقدم– أن قصائد مجلس جبل الفتح – ومن خلال ماتمثلناه– دارت ضمن قصائد المديح جلّ القصائد بشخصية الممدوح وكان أبرز الممدوحين القائد المسلم عبد المؤمن بن علي، وفي المقابل كانت شخصية قائد الإفرنج لم يرد ضمن القصائد التي وصلت إلينا باستثناء قصيدة ابن المنخل الشلبي وكان ذلك مدفوعا بدافع التعصب والأنحيازللقائد المسلم المنتصر، لذا فان تعليل كثرة ما نَظّمَ الشعراء في القائد المسلم قياساً بالقائد الإفرنجي هو أنَّ الأَول كان يحفل بالشعر وقائليه أكثر من الثاني ولذلك توجه إليه الشعراء ووجدوا ضالتهم المنشودة.

---

(6) المصدر نفسه: 146.

(1) المصدر نفسه: 147.

(2) تأريخ المن بالإمامة: 147.

(3) المصدر نفسه: 147.

د. جيش العدو:

عمد الشعراء في مجلس جبل الفتح بحكم صلتهم بالخليفة عبد المؤمن بن علي إلى نقل أخبار المعارك والحروب الدائرة بين المسلمين والإفرنج إلى أنحاء الدولة الأندلسية لكي يُطَمْئِنُوا الناس على سير المعارك ونتائِجها ويرفعون من روحهم القتالية، ولذا فان صورة المعركة وما يتصل بها من عناصر ومقومات كانت في أشعار المديح لذلك إتجهوا إتجاهاً إعلامياً هادفاً يسعون من ورائه إلى تمجيد القائد المسلم وجيشه الذي خاض غمار المعارك والحروب؛ وكانت هذه" بمثابة البلاغات الحربية أو الصحف اليومية ألتي تسجل الأحداث وتضفي عليها مايجلي عظمة القائمين بها" [1]؛ ومن هنا اتخذ الشعراء من صور جيش العدو الإفرنجي وهزائمه المتلاحقة أمام المسلمين وسيلة للاستثارة والتحريض على مواجهتهم والتصدي لهم ولاسيما بعد أن أصبحت طرائقهم في القتال والمواجهة معروفة للمسلمين، لذا فان الشعراء حينما يتحدثون عن الإفرنج كانوا يركزون بصورة واضحة على تصوير ضخامة جيشهم الذي يقاتلون به وكثرته العددية، وذلك على نحو مانرى في قول ابن المنخل الشلبي[2]:

أَتَوْكُم يَجُرُونَ الحَدِيدَ سَوَابِغَاً كَأَنَّهُم البَحْرُ الغَمَالط [3] قدعَبَّا

وَظَنّوْا –وفي الظَنِّ الجَهَالَةُ– أَنَّهُم يَفُلُّونَ مِنْ أَجْنَادِكَ الصَارِمِ العَضبا

ويبدو لي أن الشاعر يسعى من وراء ذلك إلى إظهار خطر الإفرنج في حجمه الحقيقي من ناحيةٍ، وتعظيم دور المسلمين في محاربتهم ودحرهم من ناحيةٍ أخرى، وربما أراد أن يؤكد لنا أن الجيش الإسلامي لم ينتصر على فئة قليلة أو جيش ضعيف وإنما كان يقاتل جيشاً ضخماً مدرباً وينتصر عليه، وهذا هو ديدن الشعراء منذ القدم فإنهم يدللون على أن ممدوحيهم لاينتصروا على ضعاف الناس بل على

---

(1) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، 1978م: 290.

(2) تأريخ المن بالإمامة: 143، 142.

(3) الغمالط: الغملط: الطويل، لسان العرب، مادة غملط، ج7: 364.

أقويائهم، ومع أن الإفرنج – كما نرى – كانوا يتعمدون إظهار كثرتهم وقوتهم في حروبهم مع المسلمين حتى يعملوا على أضعاف روحهم القتالية، إلا أن ابن المنخل الشلبي – في شعره – لايبدو حريصا على تصويرهم إلا وهم يفرون أمام المسلمين في ميادين القتال، وكأنه يريد أن يقول أنهم مع مايملكونه من طاقات بشرية هائلة وهم مدججون بالسلاح أضعف من أن يواجهوا المسلمين ويدخلوا في معركة مباشرة وربما كان يسعى إلى زوال هيبتهم في نفوس المسلمين ويستحثهم على مواجهتهم والتصدي لهم. ومن أجل ذلك فان ابن المنخل عندما يصور ساعة اللقاء فإنهم ينكسرون في أوله، مستخدماً ابن المنخل بعض الألاعيب اللغوية – ومجارياً المتنبي – في تصوير الحالة الانهزامية للإفرنج[1]:

فَلَمْا تَلَاقَيْتُم وَبَيَّنَت الوَغَى تَوَلَوا وَقَدْ طَارَتْ قُلُوبُهُمْ رُعْبَا
أَضَلَّتْهُم البِيْضُ الصَوَارِمِ وَالقَنَا فَكَانَت لَهُم رِفْعَاً وَكَانُوا لَهَا نَصْبَا
وَقَادَتْهُم تِلْكَ السيوفِ إِلى الرَّدَى وَمَا غَادَرَت سَهْلَ القِيَادِ وَلاصَعْبَا!
وَرَامُوا فِرَاراً والرِّمَاحُ تَنُوشَهُم فَمَا قَطَعُوا فَجّاً وَلاسَلَكُوا شُعَبَا

وكانت انتصارات المسلمين على الإفرنج تأخذ عمقها في النفوس وتستمد أهميتها من المنطق الجهادي ضد الفئة الباغية التي تبوء بالخسران على الرغم مما تحشده من قوة للقتال، وهذا مانجده في قصيدة ابن السيد الأشبيلي وفيها صور رائعة من الانتصارات التي تراءت لدى الشاعر مذكراً بأمجاد السلف وهي ذات أنفاس ملحمية تتطاير في ثنايا أبياتها الدماء وبطلها هو القائد المسلم المجاهد الحقيقي الذي رفع راية الإسلام على مر العصور والشاعر لايكاد يترك أي فرصة دون أن يستغلها لصالح بلاده، إذ يقول[2]:

وَكَمْ لَهُ وَقْعَةٍ فِي كُلِّ طَاغِيَةٍ عَلَتْ عَلَى وَقْعَاتِ الأَعْصُرِ الأُوَل
يَعْرُوا المُحَدِّقَ في تِرْدَادِهَا نَظَراً مَا لَيْسَ يَعْرُوهُ مِن صِفِّين والجَمَل
وَلاتَمَنَّعَ جَيْشٌ أنْ يَدِينَ لَه إِلاَّ تَوَزَّعَ بَيْنَ القَتْلِ وَالنَفْل

(1) تأريخ المن بالإمامة: 143.
(2) المصدر نفسه: 151، 150.

أما الأصم المرواني، فيعد جهاد الخليفة – عبد المؤمن – للإفرنج في الأندلس استمرار لجهاد السابقين الأولين للكفار يوم بدر وكأن الشاعر يتطرق إلى هذه المعاني لربط المسلمين بماضيهم وتذكيرهم بإنتصارات السلف الصالح، وأنه من واجبهم السير قدماً على الخط نفسه وبالطريقة نفسها، إذ يقول[1]:

مِنْهُ يُعَاوِدُ هَذا الفَتْحَ ثَانِيَةً أَضْعَاف مَا حَدَّثُوا فِي سَالِف الحِقَب
ويُلْبِسُ الدِّيْنَ غَضْاً ثَوْبَ عِزَّتِه كَأَنَّ أَيَامَ بَدْرٍ عَنْه لَمْ تَغِب!

ومن هنا فقد غدا الحديث عن هزائم الإفرنج أمام المسلمين وما أصابهم من قتل وسبي وإذلال ركنا مميزا عن د الشعراء الذين صوَّروا الحروب الدائرة بينهم وبين الإفرنج، ويعبر ابن صاحب الصلاة عن سخريته منهم وشماتته بهم وهي شماتة تذكرنا بشماتة أبو تمام والمتنبي وسخريتهما بالروم، إذ يقول[2]:

تَنَامُ عُيُون الرُّوم عَنْه وَإِنَّمَا تَنَامُ وَسَعْدٌ للخَلِيْفَةِ طَارِقُ
تُنَوِّمُهُم بِيضُ الخُدُودِ نَوَاعِم وَتُوقِظُهُمْ سُمْرُ القَنَى والسَّوَابِقُ
كَأَنَّ بِهِمْ وَالسَيْفُ يَأْكُلَ وَفْرَهُم وما جمعوا للنَائِبَاتِ مُفَارِقُ
فَمَا وَلَدوُا للمُسْلِمِين غَنَائِمُ! وما جمعوا للنَائِبَاتِ طَوَالِقُ

وحتى يحدث الشعراء استثارت معينة في نفوس الأندلسيين ويحثونهم على مواجهة الإفرنج والتصدي لهم كان الشعراء يتحدثون عن عقيدتهم التي كانوا يقاتلون من أجلها إذ كانوا يهدفون إلى القضاء على المسلمين وعقيدتهم، وقد كانت المشاعر الإنسانية تغمر الشعراء وهم ينظموا قصائدهم في جبل الفتح، ويظهر ذلك من خلال تركيزهم على عقيدة الإفرنجيين ونعتها بنعوت مستوحات من طبيعة الصراع العقائدي، لذا فإنهم "**عجم**"، على نحو مانرى في قول ابن المنخل مخاطبا الخليفة عبد المؤمن، إذ يقول[3]:

---

(3) تأريخ المن بالإمامة: 155، 154.
(1) المصدر نفسه: 163.
(2) المصدر نفسه: 144، 142.

وَدُسْتُم بِهَا هَامَاتِ كُلِّ مُضَلَّل وَلَمْ تَتْرُكُوا عُجْماً هنُاَكَ وَلَاعُرْبَا
ضَمَانٌ عَلَيْكُم أَن تَبِيحوُا حَرِيمَهُ وَأَنْ تَكْسُرُوا فِيَها التَمَاثِيلَ والصُلْبَا

وهم "**ذوو الشرك**" و"**الإلحاد**"على نحو مانرى في قول ابن السيد الأشبيلي مهددا الإفرنج ومؤكدا على فهمه الإسلامي الشامل للصراع، فقد نعت الأعداء ب" **ذوي الشرك والإلحاد**"ونعت المسلمين ب"**جنود الله**"، إذ يقول[1]:

أَبْلِغْ ذَوِي الشِّرْكِ وَالإِلْحَادِ قَاطِبَةً أَنَّ مَالَهُمْ مِنْ جُنُودِ الله مِنْ قِبَ ل!

وهم "**عبدة الأوثان والصلب** " على نحو مانرى عند الأصم المرواني في معرض حديثه عن العرب الذين أجازوا البحر من أجل الجهاد في سبيل الله، إذ يقول[2]:

وَتَعْبُرُ المَاءَ مِنْهُم نَارٌ عَادِيَة يَصْلَى بِهَا عَابِدُ الأَوْثَان والصُلُب

وهم "**علوج**"على نحو ما نرى عند شاعرنا المذكور آنفا في معرض حديثه عن العفو الذي أطلقه الخليفة عبد المؤمن على سكان الإفرنج في مدينة جبل الفتح، إذ يقول[3]:

سَارَ العُلُوجُ وَفِي أَعْنَاقِهِم مِنَنٌ مِنْ عَفْو مُقْتَدِرٍ للغَزْوِ مُنْتَدِب

نلحظ مما سبق أن أبرز الأوصاف التي ذكرها شعراء جبل الفتح للعدو الإفرنجي كانت متصلة بالموضوع ومتعلقة به، فعندما يصفون جيش الإفرنج وقوته فان الشعراء يعنون بها من أجل تنبيه المسلمين في تعاملهم مع الأعداء وتحذيرهم من مخاطر غدرهم وخيانتهم أما حين يبرز الشعراء هزائم الإفرنج وإخفاقهم في المعارك فلكي يثيروا الحماسة والحمية في نفوس المسلمين لذا فان قصائدهم أتت في وحدة موضوعية متكاملة بدءا بالبيت الأول وانتهاء بالبيت الأخير ف ي نسيج متلاحم متكامل.

هـ. النقد الموضوعي لشعر مجلس شعراء جبل الفتح:

(3) المصدر نفسه: 152.
(1) المصدر نفسه: 154.
(2) تأريخ المن بالإمامة: 156.

شعر التهاني بالنصر كثير وهذا هو المتوقع في كل بيئة وكل عصر ولاسيما بيئة الشعراء المتكسبين فهذه هي فرصتهم وفيها يتنافسون [1]، فجدية المواقف التي أثمرت في شعر الشعراء في مجلس جبل الفتح تقودنا إلى – أن نظن – أن كل ماقيل بحق القائد – عبد المؤمن – يتمثل فيه صدق العاطفة وحرارة الإحساس ومطابقته للوجدان ولكن نظرة متأنية ومن خلال تمحيص دقيق للنصوص الشعرية التي بين أيدينا نجد أن الشعراء يتكسبون في شعرهم فهم يلجأون بين الفينة والفينة إلى الإيماء والإشارة حينا والى المباشرة حينا آخر، وقد كانت رغبة الخليفة – عبد المؤمن – في سماع المديح حفزت الشعراء ودفعتهم إلى القول والتجويد فضلاًعن ذلك كون الشعراء يدركون مسبقا مقدار ثقافة السامعين ورهافة أحاسيسهم ودقة ملاحظاتهم ونقدهم ولاسيما – وكما قلنا آنفاً – أن الحاضرين في هذا المجلس هم من كبار علماء اللغة والشعر، فكيف إذا كان الممدوح له مواقف عديدة تؤكد ميله إلى الشعر وعنايته به [2]، ولم نجد من بلغ شأو الشاعر أبو بكر بن المنخل الشلبي في تكسبه، فهو يجيد فن التملق والتمدح لأجل أن يعيش، فيقول منشدا ومادحا[3]:

لِكَفَيْه فَضْلٌ بَانَ عَن كُلِّ فَاضِلٍ إِذَا شَدَّ عَقْدَ السِلْم أَو بَعَثَ الحَرْبَا
إِذَا أَجْدَبَتِ أَرْضُ نَحَاهَا بِجُودِهِ فَمَا أَغْزَرَ السُقْيَا وَمَا أَكْثَرَالخِصْبا!
وَلَو عَلِمَ النَّاسُ الخَفِيَّاتِ أَمْرِهِ لَمَا دَرَسُوا صُحُفاً وَلاصَنَّفُوا كُتُبَا
كَذَلِكَ مَنْ يَلْقَى الخَلِيفَةَ تَلْقَهُ بَشَائِرٌ يَسْتَجْلِي بِهَا السَّهْلَ الرَّحِبَا!

فهذه المعاني تبحث عن صدى لدى ممدوحه – عبد المؤمن – الذي بانت أفضاله على كل أفراد رعيته، فالأرض الجدباء لاتمثل إلا الشاعر نفسه والسقيا لاتمثل إلا ممدوحه عبد المؤمن الذي يتميز بنفسه الكريمة ويديه المعطاء وجوده

(3) البيئة الأندلسية: 288.

(1) ينظر، تأريخ المن بالإمامة: 49، وينظر أيضا، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين دراسة سياسية وحضارية: 100.

(2) تأريخ المن بالإمامة: 145.

الذي لاينقطع، فممدوحه فرّج عمن ضاق أمره، فكيف وان من يلقاه لايجد إلا البشائر والعطايا، وبعد هذه المقدمات التي يذكرها الشاعر لايتوانى أن يعلن حالة التكسب في شعره صراحة، فيصل إلى درجة الزيف والتملق مؤكدا طلبه للعز والمعالي ورغبته في العطايا والمنح وبنيل ماتجود به يد الممدوح، إذ يقول[1]:

تَرَفَّق عَلَيْنَا إِنَّـهَا خَيْرَ مَكْسَبٍ وَأَفْضَلُ مَالَ المَرْءِ أَفْضَلُه كَسْبَا

وهذه المعاني التي نجدها عند شاعرنا –المذكور آنفاً –قد لانجدها عند غيره من الشعراء، فالشاعر ابن السيد الأشبيلي كمن يلجأ إلى استخدام المنطق والمديح العقلي لتفسير ظاهرة العطايا – ولاسيما في بيتيه الأولين – فهو يحذر الخليفة عبد المؤمن من كرمه لكل من هب ودب من أفراد رعيته لأن ذلك قد يؤدي بهم إلى العصيان والزلل، فسمة المبالغة والغلو من أجل إشباع غرور الممدوح وتحريك أريحيته لاتخلو منها أبياته من أجل كسب وده وعطفه، محاولا الشاعر أن يرسم لنفسه صورة الرجل المترفع عن التكسب بشعره وهو يمدح عبد المؤمن، إذ يقول[2]:

مَلِكٌ إِذَا تَشْغَل الدُنْيَا أَخَا تَرَفٍ أَلْفَيْتَـهُ بِالمَعَالِـي جَدَّ مُشْتَغِل
وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُنْفَرِدٌ رَأَيْتَ فِيهِ جَمِيعَ النَّاسِ فِي رَجُل!
مَا زَالَ يُغْضِي فيعطي صَافِحَاً كَرِمَاً وَالصَّفْحُ قَدْ يَحْمُلَ العَاصِي عَلَى الزَلَل
حَتَّى إِذَا خَطَرَ العَاصِي بِخَاطِرِهِ لَمْ تَرْجُ فَتْراً لَهُ الأَيَّام فِي الطُوَل!

أما ابن صاحب الصلاة فيقول ملتمسا العطاء من مظاهر شتى من الطبيعة، فالشاعر أثنى على ممدوحه بعدة صفات منها الكرم وبذل المال لكل سائل، وضرب مثلا على جود ممدوحه الذي لايحد فيذكر أنه لو زاره فقير معدم لعاد من عنده مع كثير من الأعطيات، ويواصل الشاعر في وصف ممدوحه الذي يتميز بأن آمنت الرعية في ظله، ثم انتهى الشاعر بما بدأه في حديثه عن كرم

(3) تأريخ المن بالإمامة: 147.
(1) المصدر نفسه: 150.

ممدوحه وان"**كفيه بحر من الجود رازق** "، وإذ لايخفى على القارئ ما في هذه الأبيات من معان ابتذلت لكثرة ماطرقها الشعراء، يقول الشاعر[1]:

مُجِيبٌ لِمَن نَادَاهُ فِي يَوْمِ أَزْمَـةٍ رَفِيقٌ لِمَنْ قَلَّتْ لَدَيْهِ المرافق

جَوَادٌ إِذَا ضَنَّ الغَمَامُ بِوَبْلِـه وُصُولٌ إذا صَدَّالصَّدِيْق المُصَادِق

أَزَاحَ الرَّدَى عَنْ منْ يَلُوذُ بِظِلِّـهِ وَبَثَّ النَّدَى فاسْتَرْزَقَتْه الخَلَائِق

فَفَي ظِلِّه أَمْنٌ مِنَ الخَوْفِ مَانِـع وَفِي كَفِّه بَحْرٌ مِنْ الجُودِ رَازِق

وأخيراً فإن الأَصم المرواني يحاول إثارة شفقة الممدوح عليه ليمنحه جزيل العطايا مصوراً نفسه في صورة تثير التساؤل والاستغراب، إذ يقول[2]:

وَامْنَح جَزِيلَ العَطَايَا حَانِياً أَبَدَاً عَلَى الحُمَاةِ حَنْوَ المُشْفِقِ الحَدِب

ولكن هذا ليس في شأن جميع الشعر فهنا ك شعراء كبار حضروا المجلس فكوفئ مثلهم على قصيدته بدنانير معدودات فَتَحسَّروا على شعرهم وعلى أَنفسهم وموهبتهم وهناك من هجر صنعة المديح إلى الأبد محرماً على نفسه أن ينتجع أحدا بقصيدة أو يبتذل شعره بمدحة حاكم لايستحقها [3] والحق أن مدائح الشعراء في جبل الفتح كانت تعبر عن حقيقة مشاعرهم تجاه القائد عبد المؤمن الذي أبلى بلاءاً حسن اً ضد الإفرنج وهذه حقيقة أثبتها التاريخ الأندلسي قبل الشعر وقرار الحكم بالتكسب على الشاعر قرار مجحف بحقه وإنما نقول بان شعراء جبل الفتح استطاعوا أن يلائموا بين مهنتهم ووحيهم الشخصي واستطاعوا أحياناً أن يفروا من دواعي المهنة ويتركوا لطبعهم فرصة التحليق في أجواء الخيال والتعبير عن هواجس النفس دون قيد أو إكراه ويمكننا أن نختتم بحثنا قائلين: أن الشاعر الأندلسي في حقيقته الرسمية والذاتية قد استطاع أن يرضي ممدوحه ونفسه وفنه.

الخاتمة والنتائج:

(2) المصدر نفسه: 160.

(1) تأريخ المن بالإمامة: 157.

(2) تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس: 206.

في نهاية المطاف نقتطف أهم ثمار نتائجه:

1. إن هذه المجالس الشعرية تركت آثاراً ايجابية متعددة أَسهمت بطريق مباشر أو غير مباشر في تنشيط الحركة الأدبية والفكرية من ناحية والشعرية من ناحية أخرى ودورها في إثراء الحركة الأدبية الشعرية وازدهارها.
2. إن هذا المجلس ترك آثاراً واضحة في مضامين الأشعار ففي الناحية الموضوعية فقد دارشعرالمجلس حول القائد المسلم – عبد المؤمن – وجيش المسلمين من ناحيةٍ وبين قائد العدو وجيش العدو من ناحيةٍ أخرى كما إن معظم ما وصل إلينا من شعر المجلس جاء على صورة قصائد طويلة وذات بحور شعرية طويلة أيضاً كي يناسب طبيعة المجلس وما يقال فيها.
3. إن أدب جبل الفتح حداً فاصلاً بين مرحلتين أدبيتين وبين تصورين مختلفين لوظيفة الشعر ورسالة الشاعر، فلم يعد وسيلة لملء الفراغ ووصف مجالس الأنس والطرب والغناء على ماعهدته مجالس الشعر في السابق وما كانت تعرفه من ضروب الغزل والمجون وإنَّما سَخَّر الشاعر موهبته للدفاع عن أرضه وصيانة كرامة قومه وساعده الأنتصارعلى الشعور بهذه الكرامة والاعتزاز بها فتحول من لغة الهزل إلى لغة الجد.
4. تأَثر الشعر الأندلسي بالموضوعات التي هجرها معظم الشعراء السابقين ولم تعد في معجم المدح وهي موضوعات البطولة والشجاعة والتقوى والورع وتشبيه الممدوح بما كان عليه السلف الصالح بعيدا عن المبالغات وأساليب التملق التي كانت سائدة من قبل.
5. لقد أَتت فترة شَعَرَ العرب المسلمون بالهوان إذ هي لم تتحرك بعد أن تعرضت لهجمات الإفرنجيين وسيطرتهم على الطرق التجارية – كجبل الفتح – لهذا تحركوا إلى هذا المعبر بعد أن نظموا صفوفهم وحلُّوا مشاكلهم وكان استخدام عبد المؤمن بن علي التوجه الإصلاحي الديني لإضفاء الشرعية على هذا التحرك.

The Poets Council of Mount Alfath in "Alman bil-Imama" Book: An Objective Study

Fawaz Ahmed*

Abstract

The social life of Al-Mowahideen State is an important aspect of the Mowahideen history. It is a subject that deserves to be studied in order to shed light on the nature of Mowahideen society; and to illustrate their traditions, habits and their social and literary conditions. The celebration of victory is one of the interest to the Mowahideen people. They celebrate this event by a number of activities and ceremonies. The poets council established by Caliph Abdul-Mumin bin Ali (555A.H.) in the occasion of liberating Mount Tariq (Gibraltar) is one of the social occasions celebrated habitually in Abdalucia where poets present their poems on this occasion.

The present study focuses on the poem read by poets in the presence of Caliph Abdul-Mumin bin Ali to show their major objective aspects through paying special attention to the poems topics which were mainly four topics namely:

1. The Muslim leader.
2. The Muslim army.
3. The enemy leader.
4. The enemy army.
5. The objective criticism of the poets' council of Mount Alfath.

Due to the abundance of poetry on this occasion only the book entitled "Alman bil-Imama" written by Abi Sahib Ul-Salat Al-Baji (died 605A.H.).

Whoever reads the poetry of Andalucia will find out that the Fifth century after Hijra enjoys the greatest number of poetic councils and forums held by rulers.

* Department of Arabic/ College of Arts/ University of Mosul.